

أثر العولمة الإعلامية على المنظومة القيمية

البروفيسور إسماعيل معراف

كلية الحقوق/ جامعة الجزائر1

كلية علوم الإعلام والاتصال/ جامعة الجزائر3

الملخص

لقد كانت لظهور العولمة أثرا كبيرا على جملة القيم التي ظلت لعقود طويلة تحكم البشر. هذه القيم هي منظومة من التقاليد والعادات التي انطبعت على سلوكيات البشر وساعدت على تفعيل التواصل الإنساني والاحتكاك الفكري بين العديد من الثقافات التي يزخر بها العالم. لكن ب بروز العولمة أو الكوننة أو الكوكبة كما يحلو للعديد من الباحثين تسميتها تغير كل شيء وأصبحت تلك القيم تواجه أخطارا عدة وتحديات جمة، من بينها التلاشي والذوبان في نمط معين وقالب واحد. ولعل أهم منظومة تجلت فيها مسارات العولمة هي وسائل الإعلام والاتصال، بحيث أن هذه الأخيرة غدت بمثابة البوابة التي تروج لأبعاد هذه الظاهرة، بحيث احتوت بالأساس على مقاصد اقتصادية.

الكلمات المفتاحية

العولمة الإعلامية، المنظومة القيمية، الوسائط التكنولوجية، الدولة الوطنية.

إن عصر العولمة كما شاع في الاستعمال ارتبط بضرورة دمج ما يحصل من تطور تكنولوجي مع اتساع رقعة التغطية الإعلامية للمشاكل والقضايا التي تهم كل المجموعة البشرية ناهيك على أن الكثير من الدراسات أكدت على أن الصورة أصبحت بفعل زخمها وما حصل أكثر تأثيرا من الكتابة الورقية أو عادة القراءة في عالم اليوم⁽¹⁾.

وأكبر دليل على ذلك أن الناس في هذا العصر المعلوم تخلوا عن المطالعة والتواصلات الإنسانية الحميمة ليعوضوها بالاتصالات الأخرى، وهنا نحن نقصد

الوسائط التكنولوجية مثل المحمول والانترنت والفيديو وغيرها، وكل هذا كان له انعكاسا إيجابيا من حيث نمو الوعي والزيادة في التواصل بين البشر في هذه المعمورة، ذلك أن الوسائط والتطبيقات التكنولوجية ساهمت في تغيير الكثير من المفاهيم لعل أهمها الهوية والارتباط بالمكان، والسعي إلى تقديس الذات المحلية وعدم الاكتراث بما يجري في المحيط الإقليمي والدولي، وهو ما أكد عليه الباحث «جيد نر» من خلال تأكيده على أن وسائل الاتصال التكنولوجية الجديدة جعلت من الممكن فصل المكان عن الهوية والقفز فوق الحدود الثقافية السياسية، والتقليل من مشاعر الانتساب أو الانتماء إلى مكان محدد، كما يؤكد أيضا على أهمية دور الإعلام في خلق وتضخيم الحقائق اعتمادا على الصور والرموز، ذلك أن وسائل العولمة في ميدان الإعلام والاتصال لم تبق في إطار تحسين الخدمة وتوفير أجواء من الاستفادة، ولكنها تعدت ذلك لتفسد الكثير من الأفكار، وتضلل عبر الصورة خصوصا العديد من الحقائق مما أربك العديد من الباحثين فيما يخص معرفة مكان هذه العولمة⁽²⁾. حيث أن الاعتقاد دائما بجدوى ما طرحه من إيجابيات لاسيما في مجال اقتصاد الجهد والوقت والمسافة وتوفير آفاق رحبة لاقتناء المعرفة⁽³⁾ هو أمر في غاية التعقيد وينطوي بالضرورة على مخاطر جمة، أدت مع الوقت سواء بوعي أو بدون وعي إلى أن تصبح ملاذا لكل من يقطن هذه المعمورة.

فالعولمة في مقصدها الإعلامي أرست أفكارا جديدة لم تكن موجودة من قبل مثل فكرة السيادة التي كانت لزمان ليس ببعيد مسألة مقدسة، بل من أسس التعاملات بين الدول، وحتى التنظيم القانوني الدولي أقرها واعتبرها ركنا أساسا في مفهوم الدولة الوطنية، حيث باتت الدول والمنظمات تخترق هذه المجالات ولا تعيرها أدنى اهتمام مسببة مشاكل بالجملة لهذه المجتمعات⁽⁴⁾ فلم يعد للموروث المحلي أثرا في حياة الناس، وحتى وإن وجد فإنه يواجه بتحديات عديدة من نموذج غربي أمريكي قوي يجد كل الوسائل والإمكانيات للترويج له، فإعلام العولمة فرض نمطا معينًا من التعاطي مع القضايا اليومية من لباس إلى مأكّل إلى عادات وتقاليد إلخ، وهو الشيء الذي جعل المجموعة البشرية كلها تفتقد إلى الحيوية والتنوع لأنها باختصار صارت ستاتيكية أي تسير وفق قالب واحد، وأيضا داخل سياق فكري اقتصادي سياسي لا يجوز تجاوزه.

إن الإعلام الذي يقدم الآن خال من الخصوصية والمحلية وغير عاكس لما هو موجود من ثراء وتعدد، فهو مختصر للذات الإنسانية في بوتقة قيمية واحدة غير آبهة

بالمنشود حضاريا، فشعوب عديدة بفعل الفكر المعلوم باتت تعيش على الهامش، ولم يصبح بمقدورها مسيطرة هذا الطوفان الذي لا يكاد أن يتوقف ليتدفق من جديد تاركا ورائه بصمات واضحة على حياة البشر، فعندما نلاحظ الشبكات الاتصالية الاجتماعية. نشعر منذ الوهلة الأولى بأن العالم انحسر وصار عبارة عن قرية واحدة مثل ما قال « شوان ماكبرايد » في كتابه «أصوات متعددة.. وعالم واحد» فمشاكل العالم من المؤكد أنها ليست واحدة، وأن طرق حلها وعلاجها ليست أيضا واحدة، ومع ذلك فإن الوصفة المقدمة من قبل من يقف وراء هذه الظاهرة جعل منها صالحة لكل زمان ومكان، وبالتالي حرم البشرية من حلول إضافية وإسهامات أخرى، فكان النتائج مشوها، فوسائل الإعلام المرئية والوسائط التكنولوجية المتورطة، بقدر ما أصبحت قريبة من حياة الناس، إلا أنها باعدت بين هؤلاء البشر أنفسهم، فالقلق والتوتر وغيرها من الإعوجاجات غدت هي الطابع الذي يلف حياتهم، بدلا من أن تربطهم بحزام حضاري يخرج إبداعاتهم وتميزاتهم الخاصة.

إن التأثير الذي أحدثته العولمة الإعلامية على المنظومة القيمية بات واضحا، ولا يحتاج إلى أدلة إثبات، وشمل تقريبا كل مناحي الحياة، والغريب أن ما أصاب الدول المتخلفة أو القليلة العمران مثل ما يسميها ابن خلدون، وهنا نقصد على وجه التحديد الشعوب العربية والإسلامية من تراجع امتد مداه إلى الشعوب الغربية نفسها، رغم أنها هي المبدعة في هذا المجال، بحيث أن الفرد في الغرب فقد القدرة على مواصلة الإبداع الإنساني، مثل ما كان عليه الحال في القرون السابقة، وتحول بفعل إفرازات هذه العولمة التي حاربت العالمية إلى مجرد رقم في معادلة مادية رأسمالية متوحشة منعت عنه الفرصة لكي يستفيد ويتلاقح مع هذا الآخر رغم إقراره بأنه متخلف، إلا أن لديه بعضا من التميزات التي بإمكانها أن تساهم في رسم الصورة البانورامية لهذا العالم بطريقة أحسن، وهو ما تأكد في الرسائل والتشفيرات التي يقدمها هذا الإعلام الدولي، حيث أصبحت مخاطبة المتلقين (المستهلكين) بكيفية سهلة ولكنها مشوهة، لأن مضمونها هو واحد ويتوجه إلى آخر متعدد المشارب والعقائد والرغبات والأهواء⁽⁵⁾.

وتأسيسا على ما سبق نلاحظ أن الأبعاد التي أخذتها العولمة الإعلامية لم تتوقف عند هذا الحد، بل تعدته لتصبح أحد أدوات نشر الفتن والحروب ومؤججة للنزاعات، بدلا من أن يكون دورها الأساس هو مساعدة الشعوب على التخلي عن العنف والصدام،

حيث أن أغلب وسائل الإعلام تحولت إلى قاعات للعمليات تتمثل مهمتها الرئيسية في إشعال الحروب، والعمل على عدم إطفائها والإبقاء على حالة التآزم. وهنا أعتقد بأن قيم السلام والتواصل التي كان من المفروض على الميديا أن تقوم بها، تخلت عنها، وهذا بسبب ابتعاد هذا المنظومة عن رسالتها المبدئية، وكذا عدم احترافيتها بشكل يجعلها تضطلع بوظيفتها على أكمل وجه من جهة، ومن جهة ثانية انخراطها في استراتيجيات سياسية وفكرية تهدف كلها إلى إحكام سيطرتها على العالم بواسطة خلق حالات من التشويش مربكين بذلك كل الدول التي تحاول أن توقف زحف هذه العولمة المتوحشة.

إن الاعتقاد بأن الظاهرة العولماتية التي أحدثت حالة من الهستيريا الآن، لم تكن وليدة التسعينات، بل إنما هي نتاج حصل على مستوى الحركة الفكرية التي رافقت ما يسمى بالليبرالية وكان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر والتي أكدت على الحرية كفكرة جوهرية والإنسان ككيان مركزي في المجتمع، وحملت أيضا قضية إبعاد الحكومة على التدخل في الحياة العامة مساهمة بذلك في زيادة مساحة تحرر الفرد، بالإضافة إلى تركيزها على حرية التجارة في الخارج كوسيلة لربط أمم العالم مع بعضها البعض سلميا وديمقراطيا⁽⁶⁾. ومن ثم، فإن بروز العولمة يمثل هذه القوة والهيجان ساعد على التأسيس لأول موجة حقيقية للعولمة كظاهرة وأيضاً كعملية اقتصادية بارزة امتد صداها إلى كل مناحي الحياة الإنسانية، ناهيك على أن الفكرة التي ساعدت على انتشار مسار العولمة هو قيام نظام تجاري واقتصادي حر ومتعدد الأطراف (Multilateral free trade system)⁽⁷⁾، فتح المجال أمام تغول الشركات المتعددة الجنسيات بما فيها تلك العاملة في حقل الإعلام وتكنولوجيات الاتصال.

لقد أكدت مجلة الاقتصادي (Economiste) البريطانية الذائعة الصيت عام 1995 على أن الاندماج العالمي أعطى للحكومات العديد من السلطات الاقتصادية مثل تلك التي اعتادت على ممارستها، فالقيود التي قامت الحكومات بالحد منها يمكنها رفعها ثانية باعتبار أن ذلك يمثل حقا سياديا للدولة⁽⁸⁾، ويفهم من هذا أن العولمة ذهبت بعيدا في مجال مد السلطات وحتى وإن تركت للحكومات مجالا للمناورة، فإنها عمدت إلى ضبط كل القضايا بما فيها حقوق الإنسان والمرأة والملكية الفكرية والإبداع الإنساني والبيئة وغيرها من المواضيع التي تشكل مجالا خصبا لعمل وسائل الإعلام، وربطتها بمفردات مادية أي الربح والخسارة، حيث تتحول كل هذه القيم السامية إلى سلع

تخضع إلى منطق السوق، وهو ما يتضح حتى في مجال التشريعات الوطنية والمحلية التي تخلت عن طابعها وتكيفت مع المعطى الدولي⁽⁹⁾ فالمنتج الفني الفكري وفي كامل مجالات الإبداع الإنساني أصبح هو الآخر يخضع إلى مستلزمات هذه العولمة ولم يعد يأبه بالقيم والأخلاق واحترام الدين، بحيث تراجعت الكتب الهادفة والمؤثرة في حياة الناس، لتغزو ثقافة اللاشيء المتمثلة في الأفكار الاستهلاكية التي كان لها تأثيرات سلبية على معالجة القضايا الإنسانية.

إن المتمعن في الميديا العالمية يقف على جملة من الحقائق، من بينها اعتماد الإبهار والصخب والمؤثرات القوية التي تعتمد أساسا إلى قتل روح النقد لدى المتلقى، وتجعله يستقيل فكريا من عملية المقاومة أو القدرة على الاختيار بين ما ينفعه وبين ما يضره، بحيث أن أكبر إعلام في العالم وهو الأمريكي يركز دائما من خلال قنوات كبيرة مثل CNN فوكس نيوز، CBS وغيرها على تحويل الوظيفة الإعلامية البناءة إلى مجرد أداة لخدمة إستراتيجيته المبنية على الهيمنة والسيطرة وتحويل الآخر بالقوة، وأيضاً، وهذا هو الأخطر تشويه الحقائق المتصلة بالأديان والحضارات، مثل ما حدث مع الإرهاب وكيف تجند هذا الإعلام ليشن حملة ضد الدين الإسلامي الحنيف، وأيضاً ربطه بالمؤسسات الإسلامية والتربوية، ناهيك عن محاولة تحويل الرسائل السموية عن أهدافها السامية والتنويرية. وكل ذلك من أجل الترويج إلى منظومة قيمية مشوهة⁽¹⁰⁾ عن شعوب أمريكا اللاتينية، وكذا أقدم الحضارات الإنسانية، واعتبار ذلك من مهام الرجل الأمريكي الجديد، وهذا ما نجده مجسداً أساساً في أفكار الكاتب الظاهرة «فرانسيس فوكوياما» في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر» الذي صدر في عام 1992 وحتى قبله الكاتب «ميلتون فريدمان» حيث أن المرجعية الأساسية التي تستند إليها المخيلة الأمريكية في هذا العصر المتسم بزيادة الاعتماد على المعلومات والمعرفة، هو ضبط هذه المتغيرات وإحكام السيطرة على الموجات الهوائية مثل ما كانت المملكة المتحدة تسيطر على البحار في السابق⁽¹¹⁾.

ففرز النموذج الأمريكي لم يكن فقط بفعل السيطرة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية أي القوة المادية، بل كان أيضاً بواسطة القوة الناعمة soft power، وذلك من خلال تقديم منتج إعلامي فكري يعمل مع الوقت على استمالة العقول والتحكم عن بعد في صناعة المعلومات واحتكارها وتوزيعها، ولتجسيد ذلك تستخدم حوالي 100

قمر صناعي عسكري و150 قمرا آخر ذو أغراض مدنية وذلك عبر ما يسمى بنظام التحديد الشامل GPS، وهو الشيء الذي مكنها من السيطرة المطلقة على الفضاء⁽¹²⁾، وعليه فإن المسعى الأمريكي على هذا المستوى يوفر لها حرية مطلقة، في حين، إن جهودها في ضبط إستراتيجيتها على طرق الاتصال من الأرض، مثلا، تواجه معارضة قانونية قوية. وبالتالي فإن تفوقها في هذا المجال سيبقيها لمدة زمنية طويلة، لاسيما وأن الدول النامية مازالت في بداية التعلم فيما يخص هذه التكنولوجيات الفضائية المتطورة⁽¹³⁾ ناهيك على أن التقنيات المستعملة هي على أعلى مستوى وتتطلب توفر سيولة مالية ضخمة ليس بمقدور تلك الشعوب الرافضة لفكرة العولمة أن تحصل عليها.

وعليه، فإن البرامج والحوارات وتبسيط الضوء يكون دائما على نوعية معينة من المشاكل، فحقوق الإنسان تثار عندما يكون الفرد الأمريكي أو الأوربي موضوعا لها، بينما إذا ما تعلق بالفلسطينيين مثلا فإن الميديا العالمية تعتبر ذلك بمثابة اللاحث ولا يجوز التطرق إليها، بل الأمر يتعدى ذلك ليذهب إلى جعل الضحية جلاد في إشارة إلى جرائم الكيان الصهيوني اتجاه الشعب الفلسطيني.

وحتى الدور الذي تقوم به الأمم المتحدة في مجال تطبيق الشرعية الدولية، تضع له وسائل الإعلام الأمريكية حدودا فمثلا عند الغزو الأمريكي للعراق في 2003 ظلت الصحافة الأمريكية والعالمية تعتبر ذلك حقا شرعيا ينبغي تجسيده، لأنه يمثل باختصار محاربة البربرية والإرهاب ودفاعا أيضا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهذا الأسلوب يعبر بشكل أو بآخر عن أحد أفكار العولمة التي تعني الانتقائية والتعامل وفق معايير مزدوجة، وهو ما يذهب إليه إلى حد كبير لحوم تشومسكي، بحيث يرى بأن «العولمة هي التوسع في التعدي على القوميات من خلال الشركات العملاقة، يحركها أولا الاهتمام بالربح وتشكيل الجمهور وفق نمط خاص حيث بات الجمهور يدمن أسلوب حياة قائمة على حاجات مصنعة مع تجزئة الجمهور وفصل كل فرد عن الآخر، إذ لا يدخل الجمهور الساحة السياسية ويزعج أو يهدد نظام القوى أو السيطرة في المجتمع»⁽¹⁴⁾.

ومجمل القول نعتقد بأن العولمة الإعلامية تعني اختزالا للتطورات التكنولوجية المذهلة التي أنشأت بشرا من نوع خاص، حيث أن الجيل الذي نشأ مع هذه المرحلة، لا يجد الكثير من الوقت ليفتح التلفزيون ويشاهد البرامج المفيدة أو التحقيقات التي تعني بالهم الإنساني، أو حتى الكتب والمجلات بل أن اتصاله بالانترنت يوميا أصبح

يلبي له كل رغباته سواء في سماع الموسيقى أو تسجيلها على أقراص مضغوطة، وحتى اتصاله بالآخرين والتفاعل معهم صار يتم بهذه الوسائط المتطورة⁽¹⁵⁾، ناهيك على أن هذا الإعلام المعلوم أصبح يتدخل في كل شيء مستغلا طريقة عمله التي لا يستطيع أحد أن يراقبها، سواء الأسر أو السلطة الحاكمة مما جعل التأثير سهل وفعال في وقت أن دول كثيرة تشتكي من هذه الوضعية وتطالب بضرورة وضع ضوابط وقوانين تحد من سرعة هذا التأثير، لكن الوضع يبدو صعب لأن أمريكا والغرب عموما يعتبرون ذلك مآلا طبيعيا للتطور الذي حصل، وعلى الشعوب التي ترفض زمن العولمة، عليها أن تضطلع بعملية إنتاج كبير لاسيما في الجانب التقني حتى تتمكن من معادلة الكفة، حينها فقط سيتم إعادة النظر في ظاهرة أو عملية العولمة، أما وأن تبقى حالة عدم التوازن هذه، فإن ذلك يعني باختصار زيادة جرعات العولمة خصوصا في جانبها الإعلامي، طالما أن اقتصاد المعرفة هو الميزة التي تتسم بها الحركة الاقتصادية العالمية.

الهوامش

- 1- Mitchell Stephens, the Rise of the Image, the fall of the word. New York of Fort University. Press 1988.
- 2- Antony Gidedens. Modernity and self Identity in the late modern age Stanford. University press 1991. P: 21.
- 3 - د. زيد منير سليمان، الصحافة الإلكترونية، دار أسامة للنشر والتوزيع عمان - الأردن، ط 1 2008 ص 10.
- 4- Robert Fatton jr "Globalization, poverty and terror, sept 2001" Magazine.
- 5 - د/ صابر حارص، الإعلام العربي والعولمة الإعلامية والثقافية والسياسية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة 2008، ص 1، 113.
- 6- ميلتون فريدمان، الرأسمالية والحرية، ترجمة يوسف عليان، مركز الكتب الأردني - 1987.
- 7- R. Baldwin and p. Martin "Two Waves of Globalization: National Bureau of Economic Research" (N° 6904), January 1999.
- 8- H.F Maude, "Why the global economy needs nations"Adam smith Institute UK 1999.
- 9- د. حازم الببلاوي، دور الدولة، دار الشروق 1997 ص 53.

- 10- هنري كيسنجر، هل تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية؟ نحو دبلوماسية للقرن الحادي والعشرين، ترجمة عمر الأيوبي - دار الكتاب- بيروت 2002، ص 18 .
- 11- توماس ماكفيل الإعلام الدولي: النظريات، الاتجاهات، الملكية، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة، العين 2005 ص 167.
- 12- غسان سلامة، أمريكا والعالم. إغراق القوة ومداها، دار النهار للنشر، بيروت 2005 ص 1 و 169.
- 13- د.صباح ياسين، الإعلام والنسق القيمي وهيمنة القوة ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006 ص 1 و 3.
- 14- نعيم شومسكي، الهيمنة أم البقاء، السعي الأمريكي إلى السيطرة على العالم، ترجمة سامي الكعكي، دار الكتاب العربي- بيروت، لبنان 2004.
- 15- د. إسماعيل معراف، الإعلام وأبعاد، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007، ص 162.